جوانب العظمة فى « مذكرات من وراء القبور »

للكاتب الفرنسى « شاتوبريان »

بقلم : أ٠د٠ أحمد فؤاد عبد المجيد
أستاذ ورئيس قسم اللغة الفرنسية

أحد مظاهر الحركة الرومانسية التى ظهرت فى فرنسا فى القرن التاسع عشر يتمثل فى الرغبة الواضحة لدى الكتاب فى أن يتحدثوا عن أنفسهم وعن تجاربهم بحيث يكونون هم أنفسهم الموضوع الرئيسى لما يكتبون ٠

وقد تحدث الكاتب الفرنسى « شاتوبريان » الملقب بأبى الرومانسية فى القرن التاسع عشر ، عن ذاته فى أعمال كثيرة منها « رينيه » ، « أتالا » Atala ، « رحلة الى أمريكا » ، ومع ذلك فاننا نلاحظ أنه أوجد فى كتابه « مذكرات من وراء القبـــــور » Les mémoires d'outre tombe علاقة مباشرة واضحة بين ما يكتبه وبين تحقيقه لذاته ووجوده ، حتى أن كثيرا من النقاد يرون أن « المذكرات من وراء القبور » تعتبر أهم عمل أدبى رومانسى كتبه المؤلف ، لأنهم يعتقدون أن كل أماله الأخرى مؤدية اليه ٠

والواقع أن الظروف التى كتب فيها شـــاتوبريان « مذكرات من وراء القبور » والأهمية التاريخية والسياسية والأدبيـــــة والذاتية التى تكتسبها تساعدنا بلا شك على أن تكتشف مختلف أبعادها ، فقد استغرق الكاتب أكثر من ثلاثين عاما فى كتابتها حيث بدأها منذ عام ١٨١١ ٠ وبعد عام ١٨٣٣ أصبحت كتابه هذه المذكرات شغله الشاغل ٠

وعندما ظهرت هذه المذكرات وخرجت الى الوجود كانت فرنسا تمر بأزمة سياسية تشغل بال وفكر الجميع ٠ وقد أراد « شاتوبريان » بمذكراته تلك أن يترك للاجيال القادمة من بعده صورة نهائية عن شخصيته بحيث يتمثله الناس شكلا وروحا وعقلا من خلالها ٠ وهكذا صارت المذكرات بمثابة صرح دائم له يشاهده النظارة ويتطعلون اليه فى شغف ٠

وفى هذه المذكرات يتحدث « شاتوبريان » عن تعليمه الذى لم يكن يسير

منهج أو وتيرة واحدة ، ويحكى فيها ذكرياته فى قصر « كومبورج » ويسترجع بكل شغف الجولات الممتعة التى كان يقوم بها مع شقيقته الحبيبة الى قلبه « لوسيل » ، وأسهب كذلك فى الحديث عن الفترة التى نفى فيها وعن خلافاته مع نابليون ، وعن دوره السياسى فى الفترة من عام ١٨١٤ الى ١٨٣٠ ٠

ومن جهة أخرى فان مذكرات من وراء القبور » تعتبر لوحة يرى فيها صورة عادات جيل بأكمله عاش فى فرنسا فى بداية القرن التاسع عشر ، وتتابع الأحداث التى أثارت الاضطراب فى ذلك العصر ٠ ونتعرف ـ من جهة أخرى ـ فى هذه المذكرات على الحياة الصعبة التى كان يعيشها نبلاء الأقاليم فى السنوات الأخيرة للحكم الملكى ، وعلى ترف وبذخ ملوك فرنسا الذين أفل نجمهم بالثورة ٠ وفضلا عن ذلك فان الكاتب يبرز فيها مظاهر الطغيان التى عانت منها فرنسا فى عصر الامبراطورية ، ويتحدث عن الحملات العسكرية الدامية والشرسة وبصفة خاصة عن انسحاب قوات الامبراطورية الفرنسية من روسيا ٠

وينبغى هنا أن نذكر أنه ، فضلا عن الأهمية الروائية والقصصية للمذكرات وحلاوة سرد أوجه الحياة المستقلية التى عاشها « شاتوبريان » فى خضم أحداث جسيمة ، فان المذكرات تعتبر أيضا وثيقة معنوية ونفسية هامة تحدد لنا ملامح مرض الاكتئاب La Mélancolie الذى أصيب به وبآثاره معظم كتاب القرن التاسع عشر من عتاولة الرومانسيين ٠ وتتجلى أعراض هذا المرض واضحة فى رواية « رينيه » التى تعتبر الى حد كبير سيرة ذاتية لشاتوبريان نفسه ٠ وفى المقدمة التى كتبها المؤلف للمذكرات حتى سنة ١٨٣٣ يقول : ـ

« تتناول هذه المذكرات أهم جوانب حياتى كلها وأتحدث فيما كتبته حتى الآن عن طفولتى ، وعن تعليمى وصباى وشبابى وعن دخول الخدمة العسكرية، وذهابى الى باريس وتقديمى الى الملك لويس السادس عشر ، وعن الأحداث الأولى للثورة ، وعن رحلاتى الى أمريكا وعودتى الى أوربا ، وهجرتى الى المانيا وانجلترا ثم عودتى مرة أخرى الى فرنسا ٠ وأتحدث فيها كذلك عن مختلف اهتماماتى ومشاغلى وعن كل ما كتبته فى زمن الامبراطورية وابان فترة التجديد والاصلاح » ٠

وفى الجزء الثامن من هذه المذكرات يقول « شاتوبريان » انه لم يتحدث عن حياته بالكامل الا فى « مذكرات من وراء القبور » ٠

وربما يكتشف القارىء ـ مثلما اكتشف الناقد الفرنسى الشهير سانت بيـــف Sainte Beuve ، أن شاتوبريان قد أصابه الغرور وأتلفه الكبرياء ، خاصة وأن الكاتب يجعل من نفسه المحور الذى تدور حوله جميع الأحداث والنقطة التى تتجمع عندها كل الوقائع التى حدثت فى أوائل القرن التاسع عشر ٠

والواقع أن كل ما يشغل « شاتوبريان » هو أن يبدو بصورة مشرفة فى نظر الأجيال التى تليه ، وهكذا فضل الكتابة من أجل المستقبل على الكتابة من أجل الحاضر وذلك فى حد ذاته يفسر لنـــا الطريقة والمنهج اللذين تمت فى اطارهما صياغة مفهوم كتاب « مذكرات من وراء القبور » ٠

ويشعر المرء عند قراءته لهذه المذكرات أن المؤلف رغم تظاهره بعدم استحسان التطرف والغلواء والكبرياء لدى الانسان ، فانه يحاول هو نفسه أن يبدو كبيرا وعظيما ومغرورا حتى أنه يقول عن نفسه انه كان له هو وحده أكبر الأثر السياسى والدينى والأدبى والاجتماعى فى القرن التاسع عشر فى فرنسا ٠

واذا كانت روح العظمة وداء التعالى يعتبران أحد المكونات الرئيسية التى تحدد ملامح « مذكرات من وراء القبور » فان ذلك الزهو نفســه كان العلاقة الرئيسية التى تميز ذلك التمثال الذى نحته شاتوبريان لنفســه فى مذكراته التى تعرف فيها بأن الغرور والكبرياء كانا يشكلان عيبا فى أسرته، بل انه يؤكد انه ، وان كان من أنصار الجمهورية فانه لا يزال يشك فى أن روح التعالى والغرور عنده قد اختفت ، خاصة وأنه لم يكن أقسى عليه ـ فى أى مرحلة من مراحل عمره ـ من شعوره بالحياء والخجل أمام أىانسان ٠

ومع ذلك تقول ان المؤلف صاحب فكر مستقل وارادة خاصة ٠ وتبين لنا المذكرات ان شاتوبريان كان يريد أن يخدم فى سلاح البحرية لولا روح الكبرياء والاستقلال التى أبعدته عن كل أنواع الخدمة حيث كان من الصعب عليه أن

يطيع طاعة عمياء · وهو فى هذا الصدد يزعم أنه « شـــخص غريب نادر ولا يعلم ما اذا كان التاريخ الانسانى يعرف مثالا آخر غيره له مثل هـــذه الغرابة ·

ويحكى لنا شاتوبريان فى المذكرات كيف أنه تعارك وهو طفل مع رفيق له وبلغت المشاجرة بينهما حدا جعله يبرك فوقه ويرفض أن يقوم عنه · وكان يقول لنفسه ما قاله ديماريه Desmaret وهو ذاهب الى المقصلة « اننى لا أدين بشىء الا لله » ·

وتظهر لنا المذكرات أن « شاتوبريان » لم يكن يرى ثمة شـيئا جديرا بالأهمية بحيث يشغل به نفسه · وقد قال فى حـــديثه عما أصـــابه من اضطهاد فى واشنطن عندما سافر الى أمريكا : ـ

« اننى لم أتأثر لذلك الاضطهاد لأن تكبر النفس وسعة الثروة لا يفرضان نفسيهما على · واذا كنت أعجب بكبرياء النفس فاننى لا أسمح لهذا الكبرياء بأن يقضى على · أما سعة الثروة فانها توحى لى بالشفقة أكثر مما تشعرنى بالاحترام · ولا يوجد أى وجه انسانى يمكنه أن يجعلنى أشعر بأى اضطراب» ·

وقد بلغ اعتداد شاتوبريان » بنفسه حدا جعله يزدرى الاخرين ، وما خلا الدين فانه لا يلقى بالا لأى شىء ·

ونلاحظ من خلال قراءتنا لكتاب « مذكرات من وراء القبور » أن بها نبضة حزين ترجع الى أن شاتوبريان ، وهو المغرور ذو الكبرياء ، لا يرى على وجه البسيطة عملا يقوم به أو يفرح له ، ولا يحس بأية مشاعر جديرة به وخاصة عندما يقول : ـ

« كنت أنظر الى القمر وهو يسدل أنواره على رءوس الاشجار العارية فى الغابة ، وكنت أتمنى لو أستطيع سكنى هذا العـــالم الميت الذى يعكس شحوب المقبرة » ·

وحتى عندما يتحدث « شاتوبريان » فى المذكرات عن الأحداث السياسية فى عصره فانه لا ينسى أن يتحدث أيضا عن كبريائه وغروره وذلك حين يقول:ـ

« اذا كان نابليون قد صفى أموره وأنهاها مع الملوك فانه لم يصفها معى بعد » ٠

ويضيف قائلا فى الفصل الثامن من هذه المذكرات : ـ

« ان حماس ارائى فى السياسة لا يتجاوز طول ما أتحدث به أو ما أكتبه ، فأنا وأن كنت جمهوريا بالطبع ، فاننى أيضا من أنصار أسرة بوربون Borbons بالواجب ، ومن أنصار الملكة بالعقل »٠

وهذا التشكيك الذى يقوم به هو نفسه فى أرائه السياسية ليس سوى وسيلة نفهم بها تلك المتناقضات التى نلاحظها فى أعماله وكلماته وكتاباته ٠

أما فيما يتعلق بالنواحى الادبية وأرائه فيها ، فان المذكرات تجعل من شاتوبريان كاتبا عبقريا بالرغم من حالة الاكتئاب التى تبدو خلالها لأن الكاتب كان يحب الوحدة والمناطق الموحشة والأراضى غير المزروعة والصخور وهو لا يفتأ يقول : « كلما كان الموسم حزينا كلما تناسب ذلك معى » ٠

وعلى مدى حياته كلها كان « شاتوبريان » يحلم بأن يشيد لنفسه صرحا أدبيا كما أقام لها صرحا اجتماعيا ٠ وتحقق ذلك فى هذا الكتاب الذى يكتشف القارىء والناقد فيه روعه وسلاسة السرد وجمال الوصف ، ودقة وحلاوة التعبير عن الأفكار ، كما أن أسلوب « شاتوبريان » متطور ومتقلب حمال أوجه ٠ ولا يشعر المرء عند قراءته لهذه المذكرات بأن « شاتوبريان » يفتعل أسلوبا أو يعانى فى صياغة عبارة تستجيب لها قواعد الكتابة ، وبخاصة عندما نقلب الصفحات الخاصة بطفولته ٠ وقد قالت « جورج صاند » فى رسالة أوردها الناقد الفرنسى « سانت بيف » Sainte Beuve فى كتابه « شاتوبريان وجماعته الأدبية » : ـ « اننى اكتشف فى كل لحظة عبارات جميلة وبسيطة وجديدة فى صفحات تدل على أن « شاتوبريان » هو أفضل كاتب فى عصرنا وأنه ليس بوسعنا نحن الذين نشأنا فى مدرسته أن نكتب مثله مهما بذلنا من جهد » ٠

ويعترف الشاعر الفرنسى الشهير « لا مارتين » فى كتـــابه « ذكريات وصـــور » Souvenirs et portraits بعبقرية شاتوبريان قائلا : ـ

« ان فى الكتاب صفحات تثير الاعجاب بأسلوبها » ٠

وهكذا نجح « شاتوبريان » فى أن يثير الانبهار لدى معاصريه وقارئيه ، وفى أن يقيم لنفسه صرحا أدبيا مزج فيه أدبه بتاريخ عصره كما يقول هو نفسه فى مقدمة المذكرات سنة ١٨٣٣ : ـ « امتزجت كتاباتى بكل ما كتب فى عصرى » ٠

وبلغ به الزهو حدا جعله يهاجم غيره من الكتاب فى القرن الثامن عشر فى فرنسا مثل « برناردان دى سان بيير » Bernardin de Saint-Pierre الذى يصف كتاباته بأنها ليست على مستوى رفيع ، وجان جاك روســـو ، وشامفور اللذين يعتبران فى نظره كاتبين من الدرجة الثانية ٠

وقد أدى به داء العظمة الى أن يتهم « لورد بيرون » بأنه نقل منه ، والى أن يأخذ على مدام دى ستال De Staël عدم الاشادة به والثناء عليه عندما لم يكن معروفا بعد ٠

ويتجلى داء العظمة فى « مذكرات من وراء القبور » ويصل الى منتهاه عندما يقول شاتوبريان عن نفسه : ـ

« كيف كان سيصير شكل هذا القرن بدون كتاباتى ومؤلفاتى » ٠

والخلاصة أننا نستطيع أن نقول ان هذا العمـــل الكبير المتمثل فى « مذكرات من وراء القبور » التى تعكس كبرياء « شاتوبريان » واعتزازه بنفسه وزهوه بذاته وقدراته يتكون فى حقيقة الامر من مزيج سياسى وأدبى وتاريخى واجتماعى وعائلى ، فضلا عن السيرة الذاتية للمؤلف ٠ وهو بذلك يعتبر ملحمة عصر عايشه شاتوبريان بكل ما فيه مما جعله يقول : « ان فى المذكرات مبادىء وأفكارا وأحداثا وكوارث ، فهى ملحمة الزمن الذى أعيش فيه نظرا لأنى أنهيت عالما وبدأت عالما آخر فأنا أقع عند نقطة التقاء قرنين من الزمان مثلما يتلاقى النهران معا » ٠

وبهذا الكتاب الضخم خلد شاتوبريان نفسه وأبرز شعوره بعظمة ذاته فى صفحات ربما لم يقرأها أحد أثناء حياته ٠